النتاج الثقافي السعودي الجديد:

التخلف الثقافي من وجهة نظر سعودية من خلال كتاب

(الثقافة بين الدوار والحصار للدكتور أسامة عبد الرحمن)

من: مراسل الآداب في الرياض

هل كل تنمية اقتصادية، هي في ذاتها تنمية ثقافية في النهاية؟ وهل لا تتم تنمية اقتصادية إلا إذا كان هناك تنمية ثقافية سابقة . . ؟!

ذلك أن التنمية الاقتصادية، لا يمكن لها أن تتم، إلا على أرضية ثقافية صلبة، وموجهة إلى شعبٍ، قد نال قسطاً من الثقافة حتى يستطيع أن يستوعب التنمية الاقتصادية، ويتفاعل معها ويترجمها من أرقام وخطط، إلى مشاريع ومنتجات.

بل إن التنمية الاقتصادية من وجهة نظر بعض الدارسين، تُعتبر بحد ذاتها، تنمية ثقافية، لأنها وهي في مرحلة التخطيط، والتحضير، ووضع الأسس، والتنفيذ، والتطبيق، تتطلب حداً أدنى من الوعي الحضاري، والذي هو بالتالي وعي ثقافي.

فلكي تُخطط لحظة تنموية معينة، وتنفذ هذه الخطة بنجاح، وتحصل على نتائج تنموية مشرفة، لا بد أن يكون في البدء، قد تحقق قدر ما من الثقافة، التي تستطيع أن تستوعب مثل هذه الخطط التنموية وتهيىء لها الظروف الملائمة، لكي تحصد في النهاية أكثر النتائج إيجابية وفائدة.

لقد أدركت التنمية في الخليج العربي، إدراكاً جيداً ومبصراً هذه الحقائق كلها، واعتبرت التنمية الثقافية، مفتاحاً رئيسياً للتنمية الشاملة . . ولها أثرها على الأبعاد الأخرى للتنمية، بما فيها البعد الاقتصادي، على حد تعبير «الدكتور أسامة عبدالرحمن» في كتابه الجديد (الثقافة بين الدوار والحصار) والذي يعرض فيه هموم التنمية الثقافية في الوطن العربي وفي الخليج العربي بالذات، من خلال مقالات سبق نشرها.

والدكتور أسامة عبدالرحمن، أستاذ أكاديمي، يُدرّس ويعمل في جامعة الملك سعود بالرياض، ويشارك في كتاباته وآرائه في بناء تنمية ثقافية، مستوعبة لتحديات العصر وإشكالاته المتعددة. وهو في كتابه الجديد القديم، الذي صدر في الكويت عن «شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع» يحاول أن يكسر الصدفة الأكاديمية بكل التزاماتها المختلفة، ليخرج إلى القاعدة المجتمعية العريضة، والتي يعتبرها القاعدة الأساسية للتنمية.

وهذا الكتاب من خلال هذه النقطة، يُعتبرُ من ضمن المساهمات الجادة لإبراز دور الجامعات العربية العلمية، والجامعات الخليجية العلمية على وجه الخصوص، في التنمية الخليجية الشاملة، وتأكيد هذا الدور، لحل مشاكل الشارع، والحياة الخليجية، بشكل عام.

كتاب (الثقافة بين الدوار والحصار) كتاب يُعنى أشد العناية بمؤشرات التخلف الثقافي في الخليج العربي، ومن هنا جاءت قيمته العلمية والفكرية.

فأسباب التخلف الثقافي في الخليج، تحتل المساحة

الكبرى من هذا الكتاب، لذا فقد وصف هذا الكتاب بالشجاعة لأنه أكد على وجود التخلف، ولم يغمض عينيه تناسياً له، أو إنكاراً له، وهذه هي أهمية الكتاب بالدرجة الأولى.

وكتاب (الثقافة بين الدوار والحصار) يرد أسباب التخلف الثقافي في الخليج، وفي العالم العربي كذلك، إلى الأخطاء التالية:

* هيمنة البيروقراطية على الثقافة.
* وجود البيروقراطية الثقافية ذاتها في الحياة الخليجية، وفي الحياة العربية الشاملة.

* تضاؤل الصدق في الكلمة، فالامتحان الذي تواجهه الكلمة الصادقة، هو المحنة الكبرى في الساحة الثقافية. فالمجتمع العربي يكاد يمسخ الكلمة فيه النفاق. فهو يبارك الصدق في الكلمة ظاهرياً ولكنه في واقع الممارسة، لا يأبه بالصدق في الكلمة في أحسن الظروف.

* انحسار الريادة الثقافية الحقة.. فالساحة العربية الثقافية تكاد تكون خالية من القيادات الفكرية الرائدة علمية، أو أدبية، أو فنية. ولو أحصينا أسماء الذين يحتلون الزوايا والمواقع في الصحف والمجلات والاذاعة والتلفزيون في العالم العربي، لكان من النادر ـ كما يقول الدكتور أسامة ـ أن يكون بينهم من تنطبق عليه مؤهلات الريادة الثقافية.

* بروز ظاهرة التجريح الشخصي، والقيام بحملات الهجوم والنقد، الذي لا يستند إلى أسس موضوعية، كنوع من التفريغ النفسي وربما الاسقاط السياسي كذلك.

فهذه الظاهرة في المجتمع العربي، تستقطب الاهتمام، وتغطي مساحة كبيرة من الثقافة والكتابة العربية، لأن فيها تنفيساً عن مشاعر لم تجد طريقها للتنفيس، ولأن فيها شغلاً للفراغ الذي يحتل كذلك مساحة كبيرة من وقت المجتمع العربي.

* إن انتشار الأمية الأبجدية، والأمية السياسية، والأمية الفكرية، كان سبباً رئيسياً من أسباب التخلف الثقافي في العالم العربي، كما كانت مؤشراً هاماً من مؤشرات التخلف الثقافي.

فوجود نخبة متعلمة حصلت على درجات علمية متفاوتة، لا يعني بالضرورة أن هناك حداً ثقافياً، ذلك أن هذه النخبة لا تمثل في العادة غير قطاع محدود من القاعدة المجتمعية الكبيرة، كما أن حصولها على الدرجات العلمية الرفيعة لا يعني تمتعها بالقسط الثقافي المطلوب.

إن هناك فئات قد تخلصت فعلياً من الأمية الأبجدية، ولكنها لا زالت حتى الآن تعاني من أصناف متعدّدة من الأمّيّات، منها السياسية ومنها الفكرية، ومنها الاجتماعية أيضاً. وما تخلف المرأة العربية مثلاً، إلا بسبب الأمية الاجتماعية، التي لا زالت تلف العالم العربي.

* نظام التعليم العربي القائم حالياً، كان سبباً من أسباب التخلف الثقافي.

فبالرغم من هذا الانتشار الهائل لعدد المدارس، والمعاهد، والكليات في العالم العربي، إلا أن هذا لا يعني أن الثقافة العربية بخير، أو هي ستكون بخير في المستقبل، نتيجة لذلك التوسع الكبير في مركبات التعليم المختلفة.

فالعبرة ليست بالكم، ولكن العبرة بالكيف.

وتلك قاعدة الإنتاج العامة، في كل مكان في العالم.

والثقافة مُنتَج حضاري، لذا فيجب أن تُعامل على هذا النحو.

إن السبب في عدم وجود تقدم ثقافي في العالم العربي، مع وجود هذا الكم الجيد من المتعلمين، يعود إلى عاملين هامين:

ـ اعتماد التعليم النظامي على أسلوب التلقين والحفظ في أكثر الأحيان دون إتاحة الفرصة للعقل العربي لكي يفكر ويبتكر ويبدع.

ـ اعتماد التعليم النظامي على تنظيم النسبة الكبرى من الداخلين فيه في المسارات النظرية، لكي يكونوا في المستقبل في عداد الملقنين والمحفّظين للأجيال القادمة، للأنظمة، والقرارات، واللوائح، والتعاميم.

* ضياع الوقت.. فالعرب قالوا قديماً، بأن الوقت من ذهب.

وبالرغم من ذلك، فقد ظلت هذه المقولة عبارة عن لوحة جميلة مكتوبة بخط كوفي جميل، مؤطرة بإطار ذهبي، ومعلقة في الديوان العربي العام، دون أن يكون لها أي تطبيق عملي، ودون أن تكون نهجاً حياتياً تطبيقياً..

لقد أدى ضياع الوقت، إلى وجود الفراغ، وأدى وجود

الفراغ، إلى إيجاد وسائل سلبية لقتله، انعكست على الثقافة العربية، فأدت إلى وجود تخلف ثقافي.

* إن التربية العربية والتنشئة الأسرية والاجتماعية الحاليتين قد أدّتا إلى تخلف ثقافي كبير.

ويردّ الدكتور أسامة تردي التخلف التربوي العربي إلى جهل المرأة العربية وعدم ممارستها لدورها الاجتماعي.

قد يكون هذا واحداً من الأسباب، ولكنه ليس كل الأسباب، كما يشير المؤلف.

فالتربية دور، يلعبه الرجل أيضاً إلى جانب المرأة، والمرأة الحرة هي نتاج رجل حر. والمرأة المثقفة هي نتاج رجل مثقف، والتربية الثقافية الصحيحة، هي نتاج رجلٍ وامرأةٍ مثقفين.

إن مشكلة التربية العربية، تكمن في الرجل العربي أولاً، ثم المرأة العربية بعد ذلك. وهذه المشكلة، ليست مشكلة التربية العربية فقط، ولكنها مشكلة التربية في كل مكان من العالم.

فالرجل في العالم كله لا زال حتى الآن.. وحتى هذه اللحظة، هو صانع القرار الأول..!

والتربية قرار، كما أن الثقافة قرار!

* ويبقى السبب الأخير للتخلف الثقافي وهو الحجر الفكري. وهو في زعمي من أهم أسباب التخلف الثقافي، ليس في الخليج فحسب وليس في الوطن العربي فحسب، وليس في العالم الثالث فحسب، ولكنه في العالم كله.

إن الحجر الفكري، الذي شهده العالم الإسلامي مثلاً، في القرن الخامس الهجري، وفي القرن السادس الهجري، قد أدى إلى تخلف ثقافي عربي وإسلامي في تلك الفترة من حكم الخلافة العباسية. وتبع ذلك مزيد من التخلف الثقافي في ظل الحجر الفكري، والاضطهاد الفكري في حقب دول الطوائف والدويلات الإسلامية والعربية المتعددة.

ولكن كتاب (الثقافة بين الدوار والحصار) يعترف، ويقر، ويؤكد، أن الحجر الفكري القائم حالياً في العالم العربي، يعتبر من أسوأ ما شهدته الحياة الثقافية على مر العصور. لذا فإن التخلف الثقافي العربي القائم حالياً، هو أسوأ كارثة نزلت في الثقافة العربية، نتيجة لأسوأ عصر من عصور القهر والحجر، تشهده هذه الأمة.

وهذا الحجر الفكري، يلخص أزمة الثقافة العربية ككل..

فلا ثقافة بدون حرية..!

والأبواب الموصدة لا تأتي إلا بالظلام..!

فما يقال عن أن الترف النفطي، كان سبباً في تردي الثقافة في الخليج، وأن اغتراب واستلاب الثقافة العربية سبب في تخلف الثقافة، وأن عدم وجود خطط تنموية ثقافية، كان عاملاً هاماً في تدهور الثقافة لا يشكل إلى جانب الحجر الفكري أسباباً جذرية لتخلف الثقافة.

فبعض الأقطار العربية لم يصبها ترف النفط، وكان لديها خططها الثقافية، وبالرغم من ذلك، فقد ظلت غارقة في الأمية الثقافية حتى أذنيها، بسبب الحجر الفكري، والقهر الفكري كذلك.

وتلك هي معضلة الثقافة وداؤها الشرس في كل مكان.